مفكرة

بقلم : غسان كنفاني

أم سعد : انظري اليهم يعربشون على شجرة الثورة !

ـ « انت تقولين ذلك يا ام سعد ؟ انت ؟ انت تقولين ذلك » ؟

وهزت رأسها الذي كانت تحوطه خصلات شعرها الرمادي الخشن كما هو انها هلال الشوك الفضي، واخذت تفرك راحتيها :

ـ « انا التي اقول ذلك يا ابن العم ، ولكنني اقوله لانني رأيته بهاتين العينين اللتين سيملؤهما التراب ، وقد قلت لنفسي ذات يوم ان عيني كاذبتين ، وان ما أراه ليس الا الوهم ، او انه الخوف يتحدر في بدني من خيبة تجارب سحيقة في حياتي ، من طعم المر الذي ورثته تحت لساني كل عمري المشحّر .. آه يا ابن العم آه .. ولكن الامر لم يكن كذلك ، لم يكن كذلك !.. »

ومشت نحو المطبخ ، هذه المرأة ذات القامة العالية ، التي تبدو حين تمشي وكأن بدا من المجهول تستل من الارض رمحا او غصنا ، ولحقتها بينما اخذت تعيد عقد منديلها حول شعرها الرمادي الذي بدا لي في لحظة صغيرة مثل حقل لم يعنى احد بحشائشه اليابسة ، وقلت لها :

ـ « انت معكرة المزاج هذا الصباح بسبب ما حدث مع جيرانكم ، ويخيم عليك الاسى ولذلك ترين الامور اكثر حلكة مما هي ، لا يا ام سعد ، لا . ليس الامر بالسوء الذي ترينه هذا الصباح .. »

كانت ، قبل ان تجيء الى دارنا مثل عادتها ، قد افتحمت على جيرانها بيتهم والشمس في اول شروقها . سمعت في الليل ان ابنهم وليد قد جاء من الاردن بعد يوم واحد من انفجار المعركة مع السلطة هناك ، وقد دخلت الى تلك الغرفة الوحيدة مثلما يندفع الموج ، وهزته وهو نائم في فراشه ، وكانت غاضبة، واخذت تصب فوقه حسرتها :

ـ « لماذا جئت الى هنا ؟ فدائي يعني نفدي .. انت ، فديت من ؟ لو كنت شبعت من حليب امك لما جئت الان ورفاقك تحت البلطة .. يا عيب الشوم » .

قلت لام سعد :

ـ « ولكن الذنب ليس ذنبه يا ام سعد .. »

وابتسمت بمرارة :

ـ « عندما تجيء الذنوب لا تجد متسعا من الوقت لتوزيعها على الاشخاص .. ذنبي ؟ ان السماء تشتي ذنوبا والارض تنبّع ذنوبا ، ونحن نقول : الذنب ليس ذنبه ! ذنب من اذن ؟ ذنبه ، وذنبنا ، وذنبك ، وذنب كل واحد منا .. يا ابن العم .. اسمع لاقول لك .. »

ولكنها بدلا من ان تحكي اخذت تعيد عقد منديلها فوق راسها مرة اخرى ، وهي حركة اعتادت ان تقوم بها كلما احست بعجزها عن شرح احاسيسها ، وقد انتظرت ، صامتا ، ان تعثر على كلمات لفكرتها ، واخيرا قالت :

ـ « هل جربت عمرك ان تحمل حطبة كبيرة مع اربعة اشخاص ؟ اذا وقعت عليكم ، فهل عندكم وقت لتوزعوا الذنوب ؟ »

واخذت تفكر من جديد ، وقد احتارت ، وبدا لي انها لم تكن راضية تماما عما قالته ، ثم اعترفت :

ـ « اسمع يا ابن العم . انا لم اذهب الى مدرسة في عمري ، وحين حفظوني القرآن لم أحفظ اكثر من نصف جزء عم ، وقد قرأته الف مرة حين كانوا يدخلون الى الغبسية بالدبابات ، ولم يحدث لهم شيء .. لعلك انت الذي تعلمت في المدارس تعرف اكثر مني بكثير ما الذي قصدته حين قلت انه لا يوجد لدينا متسع من الوقت لتوزيع الذنوب .. نحن الفلاحين نقول : « مال الثلم اعوج ؟ قال : من الثور الكبير » ولكن نحن الفلاحين ايضا نعرف ، من كثرة الحراثة ، ان الثلم الاعوج يكون ايضا من الخشبة ، ومن المحراث ، ومن الحراث ، ومن الثور الصغير .. هل فهمت ؟ »

وظلت على غير رضاها ، فمضت تدور في ارجاء المطبخ واخيرا قالت وقد وضعت كفيها اللتين تشبهان قطعتي حطب على خاصرتيها :

ـ « ربما كان معك حق على اي حال ، ولكن ليس اكثر مني . ربما نحن الاثنان معنا حق .. الا انني غير مرتاحة الان . ربما لو كان ابن جيراننا جاء قبل سنة لما انتبهت الى ذلك . كنت مشغولة بالاطمئنان حتى جوزتي .. الان تغير الامر .. الان صار الغار يلعب بعبي .. اتعرف لماذا ؟ لسبب بسيط . صرت اتطلع الى الشباب في المخيم ، واسال نفسي : ماذا فعلت بهم الثورة ؟ اخذتهم واحدا واحدا . تعال يا احمد . ماذا كنت قبل ، وماذا انت الان ؟ هل استفدت من الثورة ام الثورة استفادت منك ؟ كلنا نستفيد من الثورة ، على عيني وراسي . نصير اكثر علما ، نصير اكثر صفاء ، نصير نحب بعضنا، نضحي من اجل بعضنا . نصير اكثر شجاعة واكثر صدقا واكثر حنية .. كلنا نستفيد . ولكن ان نصير احسن حالا ؟ يصير عندنا سيارة ويصير عندنا بيت ونصير نعنظ ونمشي بالعرض ؟ قلت لك : اخذتهم واحدا واحدا ، تعال يا فلان وتعال يا فلان وتعال يا فلان . ماذا كنت وماذا صرت ؟ هل استفدت من الثورة ام الثورة استفادت منك ؟ عملية جمع وطرح يا ابن العم، وعندما حسبت حسبتي، قلت لنفسي : يا حرام الشوم ! قدامك سنوات اخرى من البؤس يا ام سعد ، سنوات لها طعم زيت الخروع ! ما زال بلاط هذا العالم جائعا جائعا لجلدك وللحمك يا ام سعد . قلت لنفسي : مثل سنة الـ ٣٦ تقريبا . اقول تقريبا ولا اقول تماما ـ حتى تفهمني يا ابن العم . يعربشون على شجرة الثورة وهي لما تزل غضة ، تكاد تحت ثقلهم تنكسر مثلما ينكسر ضلع الانسان .. فافهمني جيدا يا ابن العم ، هكذا حصل ، تقريبا سنة الـ ٣٦ .

عندها قلت لها :

ـ « انت تقولين ذلك يا ام سعد ؟ انت ؟ انت تقولين ذلك ؟ » .

□ □ □

وظلت ام سعد ، طوال ذلك الصباح ، صامتة وكأنها اعتزمت ان لا تقول شيئا بعد، ولم استطع استفزاز ذهاولا فك صمتها. وعندما جلسنا عند الظهر نأكل ظلت صامتة وكأنها لم تفتح فمها في حياتها كلها ، وعند العصر جاءت الي وانا جالس الى طاولتي اكتب شيئا ، واخذت تقلب باصابعها ـ على غير اكتراث ـ صفحات كتاب كان هناك ، وبدت كفها على ذلك الكتاب مثل صراخ عميق الغور في ليل من الصمت . مثل ان تضع رفشا على سطح طاولة من البلور . وكنت اعرف انها تريد ان تقول شيئا ، فلا يعقل ان تترك كلماتها التي اطلقتها عند الصباح تطير هكذا وسط ذلك الفراغ ، واخيرا قالت وهي تقتضب ابتسامة :

ـ ربما كانت هذه الكتب مفيدة جدا . لا اعرف . لعلها تجعلك قادرا على معرفة ما سيحدث اكثر منا نحن الذين لا نعرف القراءة . ربما . ولكن نحن ايضا لدينا طرقنا . لعل هذه الكتب مثل الاوزان التي في الدكاكين ، اما عندنا في المخيم فيستعملون الحجارة والاقفال العتيقة وقطع الحديد بدل الاوزان ، وهكذا انا . لقد شهدت عدة ثورات . طلعت الى الجبل ونزلت ودفعت ابني عن طيبة خاطر وانا ازغرد ، وابني سعد ما زال هناك واذا رجع ساطخه .. وهذا كله يا ابن العم مدرسة .. في سنة ٣٨ قلت لابو سعد ان الجيوش العربية ستنهزم وان الكذب سيوقفنا على وجوهنا طب . بومها قام لي وضربني ، لم يصدق . قلت له بومها ان الحمار لا يسقط في جورة واحدة مرتين فقام وضربني مرة اخرى ... نحن الناس المشحرين الذين لم نذهب الى المدرسة ، كيف نستطيع ان نميز بين الصواب والخطأ ؟ كيف نستطيع ان نقول ان هذه ثورة صحيح ، او انها طفرة ؟ انا اقول لك كيف : مثل الفلاح الفقير الذي يستخدم الحجارة والاقفال العتيقة والمفاتيح غير المستعملة وقطع الحديد ليعرف كم هو وزن الوقية والكيلو والرطل ..

قالتها ، مفسرا :

ـ « انتم الذين تعرفون وزن الاوزان ، اهذا ما تقصدينه ؟ »

ـ « لا اعرف ، لا افهم ما تقولونه انتم الذين تقطنون في الكتب ، يكون صحيحا اذا كان صحيحا .. اريد فقط ان اقول لك بانني ما زلت عند رأيي الذي قلته لك في الصباح . اي نعم . انا التي اقول ذلك يا ابن العم لانني اراه بعيني هاتين اللتين سيملؤهما التراب .. ولكنني خشيت طوال النهار ان تكون اعتقدت انني امرأة يائسة تماما » .

قلت لها :

ـ « معاذ الله يا ام سعيد ، انا الذي اعرف انك امرأة مزروعة في الثورة ، وانك واولادك وبناتك لا حياة اخرى لكم غيرها او دونها او خارجها .. ولكنك بدوت لي متشائمة .. »

ـ « انني اسال دائما : هل اعطوا الثورة ام اخذوا منها ؟ انني افعل ذلك فقط ، انني لا افاعل ولا انشاءم ، انني اسال ، والذي يسأل ، كما يقولون ، لا يضيع .. »

ورفعت راحة يدها عن الكتاب ، فبدا فجاة عاريا ومحايدا مثل قطعة اثاث في واجهة معرض ما ، ومضت تسير ، عالية ، الى الباب .

لحظة !

« .. لقد الح كاسترو ... على الدور الذي ينبغي ان يلعبه **الانضباط الثوري** في الحفاظ على وحدة القوى وروح المسؤولية هذه ، وحسن الانضباط هذا ، يجب ان يكونا دليل العمل الثوري .. « لاننا لسنا شيئا بدون قوة الشعب .. ولاننا **نصنع ثورة اكبر منا** » ..

جانيت هابل
(الازمنة الحديثة)